آية الله التسخيري

فارسَ حوار لايكِلّ

د . جعفر المهاجر

(١)

أعتقدُ أن الحوار مع الآخَر ، بكلّ ما تعنيه كلمة "الآخَر" من مُخالف إلى مُختلف ، هو أحد أكثر فنون الكلام والخطاب تعقيداً وتركيباً . ذلك لأنه جَماعُ عدّة قابليّاتٍ وفنونٍ على نحو الكُلّيّ ، الذي يقول أهل المنطق أنه ينتفي بغياب أحد أجزائه . أوّل عناصره أمرٌ أساسٌ بدونه لا يمكن أن ينهض أيُّ حوار . يتركّب بدوره من عنصريَن قد يبدوان مُتضادّين ، ولكنهما في الحقيقة مُتكاملان .

أوّل العنصريَن هو التسليم بحق الآخَر في الخلاف والاختلاف . تحت شعار"كلُّ امرئٍ على نفسه بصيرة". دون أن ينتقصَ خلافُه أو اختلافُه من حقوقه شيئاً ، ما دام محصوراً في المذهب والرأي ووُجهة النّظر . وإنني أسترشدُ في هذا بأُطروحة علي (عليه السلام) ، بعد أن سمع مُحكّماً يصرخُ في مسجد الكوفة :"لاحُكمَ إلا لله" . فما كان منه ، وهو رأس الدولة التي يُنادي ذلك الشعار الغبيّ بنفيه وبنفيها ، إلا أن وجد في هذه الواقعة مُناسبةً لتصريحٍ غير مسبوق في الأدبيّات السياسيّة الإسلاميّة . قال فيه كلاماً أكّدَ فيه على أن ذلك الشعار بنفسه ، مع أنه . بالإضافة إلى غبائه . ناشزٌ وعدميّ ، لا ينتقص من حقوق قائله المدنيّة أبداً بوصفه مُسلماً في دولةٍ إسلاميّة.

أمّا ثاني العنصريَن فهو أن يكون المَرمى والغاية من الحوار ليس الغَلَبة والإفحام، كما هو شأن الجَدَل والمُجادلين ، بل حصْراً الوصولُ إلى كلمة سواء ، أي تقاطعات بين أفكار ومواقف الطرفين ، يمكن أن تقودَ إلى الغاية المنشودة التي يُفترَض أنها مُشترَكةٌ بينهما ، مهما تختلف الوسائل والسُّبُل . ومن الغنيّ عن البيان أنه في غياب هذا المُشتَرَك فإنه لا محلّ ولا معنى ولا جدوى من الحوار.

هذان العنصران ، أو بالأحرى الصفتان الأخلاقيّتان اللتان ينبغي أن يتحلّى بهما المُحاور، هما بمثابة الأساس من الحوار. وككلّ ماهو أساس قيمته فيما يُبنى عليه . من

صفاتٍ أُخرى . في رأسها حُسن الإصغاء للطرف الآخَر، والبراعة في اكتشاف ما يُمكن أن يكون مادةً لاستمرار الحوار، سعياً للوصول به إلى غايته المنشودة ، ثم حُسْن البيان عمّا في نفسه . والأمرُ السّيّال في هذه كلّها هو الصبر والمَزيد من الصبر .

(٢)

أردتُ بهذه المقدمة التنظيريّة أن تكون مَدخلاً لقراءة المبدأ أو المبادئ الكامنة وراء الحوارات الخصبة التي قادها شيخنا التسخيري بوصفه أميناً عامّاً لـ "مَجمَع التقريب بين المذاهب الإسلاميّة" . ومن المعلوم أنّ "المجمع" هو من أُولى المؤسّسات الوظيفيّة التي بَنَتها الجمهوريّة الإسلاميّة ، لتكون الناطق بسياستها ، والتنفيذ العملي لفكرةٍ أساسيّةٍ عند الإمام المؤسّس رضوان الله تعالى عليه في هذا النطاق . عبّر عنها بمجموعةٍ من الفتاوى المعروفة ، الأمرُ الجامع بينها إجمالاً هو تغليبُ كلّ ما يُقرّب بين أبناء المذاهب الإسلاميّة على كلّ ما يُفرّق . ما لم يتعارض مع أصلٍ كلامي أو فقهي ثابت .

إلا أنّ من الاعتراف بالفضل لأهله أيضاً أن نقولَ أنّ أوّلَ مَن بنى الفكرة بناءً مؤسّسيّاً ، وسعى لها سعيها وهو مؤمن ، هو الشيخ محمّد تقي القمي رحمه الله . ذلك الرجل الاستثنائي الذي دخل مصر لا يعرفُ أحداً ولا يعرفه أحد . ومع ذلك فإنّه نجح في أن يسحب رجالاتِ مصر خلفَه تحت لواء "التقريب" ، مُخترقاً أسواراً عاليةً من القطيعة والتنابُذ بُنيت وأُعلي بنيانُها خلال القرون ، خصوصاً في القرن الميلادي الماضي ، يوم كان التحالف الاستعماري . الصهيوني يُعِدُّ العدّة للانقضاض على فلسطين . دون أن يملكَ . أعني الشيخ القمي . سوى العمل الدّائب والإخلاص والتفاني ونُكران الذات . وما من شكٍّ في أن المجمع بصورته الحاضرة ، حين احتفظ بالاسم نفسه للمجمع الذي بناه الشيخ القمي في القاهرة ، وأعاد نشر مجلته (رسالة الإسلام) وتابع إصدارها بالنّفَس نفسه ، كان بكلّ ذلك يعترفُ اعترافاً ضمنيّاً بأصالة سابقته . وهذه إشارة أعرف أنها أقلّ من أن تكون مُنصفة للشيخ القمّي وأعماله الرّائدة ونتائجها غير المسبوقة . إذن ، فلتكُن دعوةً لقراءة مقالتنا المنشورة بالفرنسية في مجلّة المجمع Le Debat[١] = الحِجاج ، تحت عنوان "محمد تقي القمي في القاهرة" .

---

١ . Le Debat N.٣ pp٩-١٨

(٣)

أثناء إشغاله منصب أمين عام "مجمع التقريب " قادَ الشيخُ التسخيري عشرات الحوارات المباشرة والناجحة تحت مختلف العناوين من دينيّة إلى مذهبيّة إلى فكريّة أو ثقافيّة . وإن أنسَ فلا أنسى لقائي به مرّةً في دمشق حيث كنّا أنا وهو نُشارك في ندوةٍ عقدتها وزارة الأوقاف السوريّة . فلاحظتُ عليه إماراتِ تعبٍ عميق . وأوضح لي الشيخُ الأمر بأنه منذ خمسة وعشرين يوماً من طائرةٍ إلى مؤتمر ومن مؤتمر إلى طائرة . وها هو الآن سينطلق من دمشق إلى ماليزيا .

في بعض ما كتبه على موقع الحوار في مختلف علاقات البشر يبدو الشيخُ مؤمناً إيماناً مطلقاً بضرورة الحوار. ليس بوصفه أداءً كماليّاً أو تكميليّاً ، وإنما بوصفه فعلَ ضرورة تُمليها فطرةُ البشر، المبنيّة على الارتباط الوثيق بين معادلتي التقدّم والاختلاف . حيث تكون وظيفة الحوار أساسيّةً جدّاً ، بغيابها يغدو الاختلافُ أداةَ تدميرللعلاقات الانسانيّة . الأمرُ الذي نرصده لدى المذاهب التي تحصر الحقَّ فيما ذهبت إليه ، وتُكفّر كلَّ مَن خرج عليها ولو بمقدار أنملة .

يقولُ الشيخ في بعض ما علّقه في هذا النطاق :

"**يأتي الحوارُ ليُعطي الاختلافَ بُعداً إنسانيّاً ، يضعُهُ في شكله الطبيعي . ولا يسمحُ له بالتحوّل إلى طاقةٍ تدميريّة. بل إن الحوار يخفض من مستوى سلبيّات الاختلاف ، ويرفع من مستوى إيجابيّاته . ليكون الاختلافُ رحمةً وخيراً ودافعاً للاصلاح والمراجعة المستمرّة . وهذا البُعدُ يمنحُ الحوار مضموناً مصيريّاً وموقعاً استراتيجيّاً في استمرار الحياة بطعمها المُستقرّ ، وإبقاء الجنس البشريّ بمستوى ما حباه الله من عقلٍ وقدرة على التفكير والاختيار**".

"إنّ الحوارَ أداةٌ للكشف عن الحقائق والاشياء الخفيّة . ومن خلاله تتمّ الاجابةُ عن كثيرٍ من علامات الاستفهام والاشكاليّات العالقة في الذهن . أو تزيد من القناعات الذّاتيّة . كما يمكن من خلاله كشْفُ الباطل ودحضه وأيضاً كشْفُ مؤثّرات ودلائل بُطلانه" .

"الحوار يُنضج الافكار والقرارات . ففي الجانب الفكري والثقافي يُنمّي الحوارُ الأفكار ويُعمّقها ، ويُشذّبها ممّا يعلق بها من انحراف أو جمود أو شوائب . ويحرّك العقل باتجاه الابداع والتجديد والتحرّر ، في الحدود التي تفرضُها مرجعيّةُ الاختلاف . وفي الجانب السياسي والاجتماعي يلعبُ الحوار الدور نفسه في إنضاج القرارات ، وإشعار الآخرين بالمسؤوليّة وبأهميّة الموقع الذي يحتلّونه[٢].

هذا النصّ البارع الصياغة والعميق الدّلالة يُبيّن لنا الجوانبَ الخفيّة وراء مَظهر الحوار في كافة المواطن ، الذي قد يبدو لغير مَن مارسه بإيمان أمراً بسيطاً . وإني لأشهدُ أنني في كل ما قرأتُ من ضروب التنظير لهذا الشأن لم أقف على مثل عُمق وشمول هذا النصّ . وما من ريبٍ في أن صاحبه قد استفاده من تجربته الطويلة والناجحة في هذا الميدان .

إن القيمة الكبرى لهذه الرؤية للحوار وضرورته ووظيفته وميادينه ومراميه تأخذ قيمةً خاصة لدينا اليوم . حيث ارتفعت أبواقُ الفتنة على قاعدة حصر الحقّ في وُجهة نظرٍ واحدة لا يعدوها . أي ضمناً نفي الحق في الخلاف والاختلاف . ومن الغني عن البيان أن هذا لا يترك أي فُسحة لخطاب المُختلف ، فضلاً عن بناء حوار معه .

---

٢ . محمد علي التسخيري : الحوار مع الآخَر، ط. مديرية النشر والمطبوعات في المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الاسلامية ١٤٢٤هـ. / ٣٦ . تابع القراءة في الصفحات التالية تحت عنوان " عناصر الحوار " . فهو من أجمل ما كُتب في أدبيّات الباب .

(٤)

تحيّةٌ لك أيها الفارس الذي يأبى النزولَ عن صهوة الحوار، وعن الإيمان بالحوار، وعن العمل بالحوار في هذا الزمن الصّعب .

تحيّةٌ لك في نفسك القويّة وروحك الوثّابة وعقلك المُنطلق ، على الرغم من الامتحان العسير في الجسد . بهذا ومثله بل بأقلّ منه يظهر الكامن من معادن الرجال الرجال ، حيث يبقون هم أنفسهم أعمالاً وإنجازاتٍ في القوّة كما في الضعف .

إن سيرتك وأعمالك دروسٌ مُتجدّدةٌ لا تنفدُ مغازيها لكلّ مَن عرفوك . وما أكثرهم . أنموذجاً لغلبة الايمان والتصميم والإرادة على المعوّقات التي تخور عندها نفوسُ الضعفاء .

والحمد للـه